التغير الاجتماعي والمشكلات الاجتماعية في المجتمعات المسلمة المعاصرة

التغير الاجتماعي:

يتعرض كل شيء في الوجود الاجتماعي إلى التغير، والتغير في نطاق المجتمع هو العملية التي تشير إلى التغير الاجتماعي Social Change أو التغير الثقافي Cultural Change أو هي عملية الارتباط القائم بين الاثنين وقد تكون هذه العملية بطيئة أو سريعة، تطويرية أو ثورية.

والتغير الاجتماعي في منظور علم الاجتماع مفهوم شامل[1] ومتسع يندرج في ظله كل أنواع التغير الكائنة في المجتمع. ويعني التغير الاجتماعي ببساطة عملية الصيرورة[2] إلى وضع مختلف عن الموضع السابق الذي عليه الظاهرة الاجتماعية. وبتعبير آخر هو الاختلافات التي تطرأ على أي ظاهرة من الظواهر الاجتماعية خلال فترة معينة من الزمن والتي يمكن ملاحظتها وتقديرها، وإن كان بعض التغيرات تمر بغير ملاحظة ويتقبلها الناس على أنها أمور عادية، والتغير لا يتم بصورة سريعة وقطعية بل بصورة بطيئة وتدريجية بحيث إن بعض الناس قد لا يشعر به.

ويؤخذ التغير الاجتماعي في العادة على أنه التعديلات التي تحدث في أنماط الحياة في مجتمع معين أو في شعب من الشعوب[3].

---

(١) John Eric Nordokog, Social Change, McGraw Hill Book Co., Inc., N. Y., 1960, p. 1.

(٢) المرجع السابق نفسه، الصفحة نفسها.

(٣) د. أحمد أبو زيد، البناء الاجتماعي، ج ١، الدار القومية للطباعة والنشر، القاهرة، ١٩٦٥م، ص ٢٥٢.

وقد حصلت عدة عوامل أثرت على المجتمعات المسلمة منها العوامل الخارجية ومنها العوامل الداخلية فمن العوامل الخارجية الاتصال بالغرب سواء عن طريق الاستعمار أو البعثات أو الإعلام أو الثقافة أو السياحة أو غيرها من سبل الاتصال، وهو اتصال كانت له ردود فعل منها الانبهار، التبعية، الرفض، التقويم، الاستفادة بحدود. . وغيرها من ردود الأفعال التي لا تخرج عن كونها رد فعل.

ومنها الهجرات، والحضرية، التقنية، والتعليم، ومنها الظلم، والتطرف المادي ثراءً أو فقراً، التفكك الأسري. . وغيرها من العوامل المؤثرة التي أحدثت بعض التغيرات وبعض المشكلات في المجتمعات المسلمة المعاصرة.

الهجرات والحضرية:

لا شك أن للبيئة المكانية أهمية وأثراً كبيراً إلى جانب عوامل أخرى في تكوين معتقدات وأنماط سلوكية معينة، وتختلف تلك المعتقدات والسلوكيات إلى حد يبدو واضحاً بين إنسان الريف والحضر، ولا يبدو ذلك لي تصنيف معين في الاتجاهات السلوكية والعملية بقدر ما هو بيان لما للبيئة من أثر على تكوين الفرد وتنمية قيمه ومبادئه منذ نعومة أظفاره.

ومن العوامل المهمة والجديرة بالدراسة التنقل الاجتماعي أو الهجرة والنزوح من الريف إلى المدينة وما يواكب ذلك من آثار اجتماعية سيئة على مستوى الأسرة والفرد[1].

ويقاس التنقل الاجتماعي على أساس معدل نسبة تغيير محل الإقامة خلال عام واحد. ولسوف نقصر الكلام هنا على المفهوم المكاني لعملية التنقل والآثار الاجتماعية التي ترتب على ذلك. ويشبه أحد الباحثين التنقل الاجتماعي بنبض المجتمع الذي يدل على استمرار الحياة.

(١) المشاكل الاجتماعية والسلوك الإنحرافي، محمد عاطف غيث، ١٩٨٧م: ١١٣-١١٤.

وعندما ينتقل فرد أو جماعة من محل إقامته الأصلي إلى مكان جديد فإنه يسبب مشكلة للمكان الذي انتقل إليه وربما بالنسبة لذاته أيضاً؛ لأن علاقاته القديمة تنهار، وعليه أن يكوّن علاقات جديدة مع مشقات التكيف والتوافق، وعلى المكان الجديد أن يفسح له طريق الحياة. كل هذا يؤدي إلى نشوء مشكلات التفكك. ويلاحظ أن التنقل الاجتماعي ومشكلات أوضح ظهوراً وأبعد أثراً في المدن الكبرى إذا قورنت بأية مدينة أخرى أو منطقة قروية. ويرجع ذلك إلى ما يلي:

١ - إتساع نطاق تقسيم العمل والتخصص وخاصة في المراكز الصناعية، مما يجعل تلك المدن مراكز جذب سكانية.

٢ - النمو الحضري السريع يؤدي إلى اتساع نطاق الخدمات، مما يؤدي إلى النزوح إليها.

٣ - انخفاض معدل الزيادة في سكان المدن الكبرى أدى إلى اتساع الهجرة إليها.

المشكلات التي يمكن أن تترتب على إتساع نطاق عمليات التنقل الاجتماعي:

١ - إتساع دائرة المناطق المتخلفة في المدن الكبرى؛ لأن المهاجرين يميلون في أوائل فترات إقامتهم إلى اللجوء إليها وخاصة في فترة البحث عن عمل.

٢ - ظهور الأمراض النفسية والاضطرابات العصبية نتيجة لعدم قدرة المهاجرين على التكيف السريع مع الحياة الحضرية.

٣ - وجود فرص كثيرة لممارسة الأعمال المخالفة واتساع نطاق السلوك الإجرامي، نظراً لانفصال المهاجرة عن الروابط الاجتماعية التي كانت تشدها إلى المجتمع المحلي ولضعف الرقابة الاجتماعية.

٤ - وجـود عـوامل كثيرة تـؤدي إلى تفكك الأسرة وازديـاد نسب الطـلاق وانحراف الأحداث.

التعليم والتقنية:

تعيش البشرية في ظل حضـارة إنسانيـة عظيمة الشأن، رفيعـة المستوى... لكن إلى أي حـد؟! لقد بلغت البحـوث والاكتشافـات البشرية شأنـاً عظيماً في مجال العلوم والمعارف... ووصل الإنسـان بعلمه إلى حدود بعيدة، ظنـاً منه أنه اخترق كل الآفـاق، وبلغ مـا لم يبلغـه أحـد من المخلـوقـات!! فشيـد القـلاع الحصينة والقصـور الفارهة والمراكـز الباهرة، وقـلاع وحصون العصر على شكل آخر حديث؛ هي غابات الاسمنت والحديد ومراكز البحث والعلم، فضلاً عن مراكز التجارة والصناعة وكل ما هو مادي براق من ملاعب ومتاحف وملاهي، فهل بـذلك بلغت الإنسـانيـة رشدهـا: وهل نفعت نفسهـا؟ وهل بلغت حـد السعادة والراحة بما خلف لها العلم والتكنولوجيا؟!

من الإنصـاف أن نذكر أنها حققـت بعض صور السعـادة والرفاهيـة في نمط المعايش والحيـاة، وسهلت الكثير من وسائل الراحـة والمتعة. لكن من الخطأ أن نتمادى في وصف منجزات العلوم والحضارة من دون أن نكشف عن ما تسببه من مشكلات، ومـا ينجم عنها من كـوارث وفناء في صـورها المتطـرفة من الـوسائل الحديثة...

وإذا أوجزنـا الحديث عن بعض صور العلـوم الضارة، يمكننا بيـان مالها من مخاطـر ومساوئ ومضـار في يسر وسهولـة، فإذا أخـذنا على سبيل المثـال «علم التسليح» بشكله وآثـاره الضارة على البيئة والإنسـان والمجتمعات بأسرهـا، وما جناه ذلك العلم من خراب مدمـر للحرث والنسل، وفي عصر الأسلحة النووية والصواريخ العابـرة للقارات، وحرب النجوم، وكل هـذه المسميات البراقة التي لا تحمل معها إلا الفنـاء والشقاء للإنسـانية، فضلاً عن كـونها أداة تسلط وقهر

و إذلال للشعوب المسالمة أو المستسلمة في وقت السلم، وهناك من صور العلوم الضارة المبالغة في البحث العلمي في مجال الوراثة والأنساب، بحيث يتحدى هؤلاء المهوسون الخالق في تغيير الخلق والصفات كما يزعمون، وهو ما نجم عنه من سوء استخدام ما يسمى «طفل الأنابيب» والأمشاج المشوهة التي كانت نتائج علومهم بوجهها القبيح.

ولا يقتصر البحث العلمي والتقنية على الجانب العملي والمعملي، بل هناك مجال أخطر وأشد فتكاً وهو المجال النظري الثقافي والفلسفي، مثال ذلك نظريات اقتصادية متطرفة يمينياً أو يسارياً - ليس اليمين أو اليسار الجغرافي - بل الفكري كما يزعمون، حيث غالت في الثراء والفحش أو ضيعت الحقوق والدين.

الإسلام والحضارة:

الحضارة الحديثة نتاج تقدم علمي باهر، وصل إليه الإنسان بعد قرون من البحث المضني والتجارب الغالية! ولم يكن عجباً أن يستغل الإنسان كشوفه لأسرار الكون وقواه الخفية في ترقية نفسه وترقية معايشه، بل إن ذلك أقرب إلى الحكمة من استغلال هذه الكشوف في تدمير الحضارة نفسها وتيسير الانتحار الجماعي على الناس!

وقيل في وصف العالم: إن عضلاته أكبر من فكره، ولو أنصفوا لقالوا: أنه عالم يذكر نفسه، وينسى ربه، ويجحد حقه، ويماري في لقائه، ويظن أن هذه الدنيا كل شيء، فلا إمتداد لوجود آخر، ولا حياة إلا هنا.. !![1].

لقد قام الإسلام منذ بدأ مسيرته على حقيقة إحترام العلم والتعلم، منذ استمع نبيه ﷺ إلى صوت الوحي: ﴿**اقرأ باسم ربك الذي خلق، خلق الإنسان**

---

(١) مائة سؤال عن الإسلام، محمد الغزالي، ج ١ : ١٧٣، دار ثابت، مصر.

من علق، اقرأ وربك الأكرم، الذي علم بالقلم، علم الإنسان ما لم يعلم﴾[1].

إن العلم هنا من شقين، علم بحقائق الوحي، وعلم بطرق غرسه، وذود الأذى عنه! . .

إن الثقافة الإسلامية منذ نشأتها تشعبت أصولها وفروعها وتشعب العمل الذي يقوم به المسلمون فرادى وجماعات، وليس في تاريخ هذه الثقافة علم ديني بعيد عن الحياة، وعلم مدني بعيد عن الدين، ولم يقع انقسام العلم إلى ديني ومدني إلا في عصور السقوط والاضمحلال.

وبدهي أن تكون علوم الشريعة أول مظاهر الحركة العلمية في الإسلام، فنشأت علوم القرآن والسنة والفقه والأخلاق والتربية، ولا يجرؤ أحد على إنكار ما في القرآن الكريم والسنة المطهرة من خصوبة فكرية ومنابع غزيرة للفكر والوجدان والسلوك، وأنها مهاد جليل لحضارة إنسانية زكية رحبة.

ثم صاحب ذلك العلوم العربية من نحو وصرف ومعان وبيان وبديع، وازدهر الأدب والبحث في فلسفة اللغة وأسرار البلاغة وألفت القواميس، وأصبحت الدراسات الأدبية واللغوية جزءاً أصيلاً من عمل الدراسات الدينية.

ونشطت الدراسة الفلسفية - التي تحولت في عصرنا إلى علوم إنسانية - فلم تبق في أرض الله إثارة من معرفة إلا استخدمها المسلمون، وتوفروا على فهمها وتقويم مسارها. . .

ومع نضج الفكر الإسلامي ظهرت علوم الكون والحياة مستهدية بمنطق الملاحظة والتجربة، وهو منطق قرآني المنبت، فكانت علوم الرياضة من حساب وجبر، وعلوم الطبيعة والكيمياء، والفلك! . .

ويكاد المنصفون من مؤرخي الحضارة يجمعون على أن المسلمين هم أولوا

---

(١) العلق ١-٥.

الفضل على النهضة الأوروبية، وأنهم السبب المباشر في عصر الإحياء.

وقد كان من وراء الانتصارات العسكرية والعلمية - إلى ما قبل بضعة قرون - تفوق علمي وصناعي، هو الـذي أعان على فتح «القسطنطينية» وحصار «فينا» ووقف الزحف الصليبي[1].

لقد أنـار الديـن عقول وقلـوب المسلمين العاملين بـه شرعاً، والمتحكمين إلى كتابه وسنة رسوله، فما ترك أمراً فيه خيراً إلا دلهم عليه، وما رأى من أمر فيه خطر أو هلاك إلا حذرهم منه، ذلكم الإسلام الذي أعلى العلم ورفع أصحاب العلوم الدرجات العلى في الدنيا والآخرة ﴿**يرفع الله الذين آمنـوا منكم والذين أوتوا العلم درجات**﴾[2].

(١) مائة سؤال عن الإسلام، محمد الغزالي، ج ٢: ٣٢٠-٣٢٣، دار ثابت، مصر.

(٢) المجادلة ١١.

obeikandl.com